حكايات نحبها جميعاً

٧

لقد شغلته عن تجارته

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

دَرْدَشاتٌ واقْتِراحَاتٌ

زَارَتْ (مَيساءُ) صَدِيقَتَهَا (نَاهِد) ، وبَعدَ التّرحَابِ وتَقدِيمِ الضِّيافَةِ العَربيَّةِ الأَصيلةِ ، وَبعدَ تَبادُلِ أَطرَافِ الأَحاديثِ الرَّائعةِ والذكريَاتِ الجَمِيلةِ.

قَالتْ (مَيساءُ): مَالي أَرى غُرفَتكِ عَلى غَيرِ مَا أَعهدهُ مِنْكِ؟

فَقالتْ (ناهدٌ): وَكيفَ ذَلكَ يا صَديقتِي؟!

قَالتْ (مَيساءُ): لقدْ عَهدتُكِ مُرتَّبَةً ومُهذَّبةً وأَنيقةً ، لكنِّي أَرىٰ الأَوْراقَ مُبَعْثَرةً فِي الغُرفَةِ ، فَوقَ السَّريرِ! وفوقَ الوسَادةِ! والكُتُب لمْ تُرتَّبْ

فَوقَ رُفُوفِ المَكتبةِ وَ..!! فَما الذي حَدثَ مَعكِ يَا صَدِيقتِي ، وَمَا الذي غيَّركِ من حَالٍ إلىٰ حَالٍ آخرَ؟

ابتَسمَتْ (نَاهدٌ) وَقالتْ: هَكَذا حَال الكُتَّابِ والمؤلِّفينَ!!

قَالتْ (مَيساءُ): وَمَا دَخلُ صَدِيقتي بالكُتَّابِ والمؤلِّفينَ؟!

هِيه.. يَا صَديقَتي ـ قَالتْ (نَاهدٌ) ـ يَبدُو أَنَّ الخَبرَ لمْ يَصلكِ بَعد ، فَلقدْ أصبَحْتُ منَ الكُتَّابِ الكِبارِ! وَأَنا أجمعُ تَراجِمَ عَددٍ من رجَالاتنَا ونِسائنَا ليكونَ ذلكَ كِتَاباً ، أَو مجموعةً قَصَصيَّةً ونَحوَ ذَلكَ..

قَالتْ (مَيساءُ): وَما هُو المِحورُ الذي تَدُورُ حَولهُ أَحداثُ تلكَ الحِكَاياتِ؟

فَقالتْ (ناهدٌ): وَمَا أجملَ قَولَ من قَالَ:

وَتَشبَّهوا إنْ لمْ تَكونُوا مِثلَهمْ

إنَّ التَّشبُّــهَ بــالكِــرَامِ فَــلاحُ

فَقَالتْ (مَيساءُ): يَا عَزِيزتِي (نَاهِد) لَقدْ طَلبَ منَّا مُدرِّسُ اللُّغةِ العَربيَّةِ أن نكتبَ عَن شَاعِرةٍ أَجادتْ فِي فنِّ الرِّثاءِ..

وَبعدَ أُسبوعٍ أَحضَرتِ الطَّالباتُ مَواضِيعَ التَّعبيرِ ، فَكانتْ جَمِيعهَا حَول الشَّاعِرَةِ تَماضُر (الخَنْساء)!!

فضحِكَ المُدرِّسُ وَرفضَ كلَّ المَواضِيع ، ثُمَّ أَعــادَ السُّــؤالَ مُشْتَــرِطــاً عَلينَــا أن لا نُــدخِــلَ (الخَنْسَاء) فِي الإجَاباتِ...

قَالتْ (نَاهدٌ): وَهلْ وَجدت تَرجَمَةَ شَاعِرَةٍ أَبدعتْ فِي فَنِّ الرِّثاءِ ، عَدا الخَنْسَاء؟!

أَجابتْ (مَيساءُ): أبَداً ، وَهَذَا مَا يُقْلِقنِي ، وَخَاصَّةً أنهُ لمْ يبقَ عَلىٰ تَسليمِ الوَظيفةِ إلاَّ يَومانِ ، فهلاَّ سَاعدتنِي يا صَديقتِي وَعزِيزَتِي (نَاهِد)؟!

فَكَّرَت (نَاهدٌ) قَلِيلاً ، ثُمَّ قَالتْ لِصَديقتِها: فِي المَساءِ سَأتَّصلُ بِكِ عَن طَريقِ الهَاتِفِ وَأُخبركِ بِما يَسرُّكِ بإذنِ اللهِ تَعالَىٰ.

وَبالفعلِ ، مَا إن دَخَلَ والِدُهَا الأُستاذُ (نَاجِي) إلى البَيتِ ، وتَناولَ جَميعُ أَفرادِ الأُسرةِ طَعامَ الغَداءِ.. واستَراحُوا استِرَاحةَ القَيلولَةِ.. ، حتَّى تقدَّمتْ (نَاهدٌ) مِن والدهَا.. وَسألَتْهُ عن فَنِّ الرِّثاءِ عندَ العَربِ ، وعَن أَسمَاءِ نِسوَةٍ بَرَزْنَ فِي فنِّ الرِّثاءِ..

فَقامَ الأستاذُ إلى خزَانَةِ الأَوراقِ ، وَفتحَ

الدّرجَ العلويَّ منهَا ، ورَاحَ يقلِّبُ في بَعضِ الأَوراقِ ، حتَّىٰ عَثرَ على وَرَقةٍ صَفراء اللَّونِ.. فَأخذهَا وَراحَ يَقرأُ منهَا: مِن أَبرزِ مَن برزنَ في فنِّ الرِّثاءِ: الخَنْساء ، وَعاتِكَة بنت زَيدٍ و...

فَقاطعتهُ (ناهدٌ) وَقَالتْ: يَكْفِي يَا وَالدِي ، نُريدُ اسمَ وَاحِدةٍ فَقَطْ.

وَكَانَتْ عاتكةُ تَقفُ عَلىٰ رُؤوسِ الأَشهَادِ ، أَمامَ الكَعبَةِ فَتُنادِي بالنَّاسِ قَائلةً:

وَأسلَمتُ وَجهِي لِمَنْ أَسلمتْ

لَهُ الأَرضُ تَحمِلُ صَخْراً ثِقَالا

دَحَاهَا فلمَّا استقرَّتْ شَدَّها

سَواء وَأَرسىٰ عليهَا الجِبَالا

وَأَسلمتُ وَجْهِي لِمنْ أَسلمَتْ

لَهُ المُزْنُ تَحمِلُ عَذْباً زُلَالاَ

إذا هِـيَ سِيقَـتْ إلـىٰ بَلـدَةٍ

أَطَاعَتْ فَصبَّتْ عَليهَا سِجَالا

وَلذلكَ مَا إن وصَلهَا خَبَرُ الإسلامِ ، حتَّىٰ دَخَلتْ فِيهِ دُونَ تَردُّدٍ...

حُبٌّ فَوقَ العَادَةِ!!

اشتَهَرتِ السَّيِّدةُ عَاتِكَةُ بالحُسنِ والجَمَالِ ، إضَافَةً إلىٰ قَولِ الشِّعرِ ، وَرَهَافَةِ الحِسِّ ، والوَفَاءِ و..

وَلمَّـا تـزوَّجَهَـا الصَّحـابـيُّ (عَبـدُ اللهِ بـنُ أَبي بَكْرٍ) رَضِيَ اللهُ عنهُم ، وَجَدَهَا امرأةً من نَوعٍ خَاصٍّ فَأحبَّها حُباً شَدِيداً ، وأُعجبَ بهَا إعجَاباً كَبِيراً ، حتَّى قِيلَ: إنَّها شَغلتُه عن تِجارتِهِ ، ممَّا جَعلَ وَالدهُ يأمرهُ بِطَلاقِهَا ، فطلَّقهَا تَطليقَةً!

لكنَّه لمْ يَصبرْ عَلىٰ فِراقِها.. وَراحَ يَسعىٰ بينَ بيتهِ وبيتِها ، وظَهرتْ آثارُ الحُزنِ علىٰ جَسَدهِ ، وَأنشدَ قَائِلاً:

أَعاتِكُ لا أَنساكِ ما هبَّت الصِّبا

وَمَا نَاحَ قمْريُّ الحَمَامِ المُطَوَّقُ

أَعَاتِكُ لا أَنساكِ ما حَجَّ راكِبٌ

وَمَا لاَحَ نَجمٌ فِي السَّماءِ مُعلَّقُ

أَعاتِكُ قَلبِي كُلّ يَومٍ وَليلةٍ

إليكِ بمَا تُخفِي النُّفوسُ مُعلَّقُ

وَلَولا اتِّقاءُ اللهِ في حَقِّ وَالدٍ

وَطاعَتهُ مَا كَانَ منَّا التَّفرقُ

وَلمَّا وصلَ الخَبرُ إلىٰ والدهِ أَبي بَكْرٍ ، رَقَّ لهُ ، وَأَذِنَ لهُ أن يُراجِعَهَا...

وَدارَ الزَّمنُ ، وَهي تَعيشُ مَعَ زَوجهَا عِيشَةً

هَنيّةً ، لاَ تَسمعُ فِيهَا لاَغِية. لكنَّ القَضاءَ والقَدرَ يُخبّئُ شَيئاً آخَر.

فَشَهِدَ مَعَ رَسولِ اللهِ صَلواتُ اللهِ عليهِ الطَّائفَ ، وَرمَاهُ أحدهُم بِسَهمٍ ، فكانتْ نهايتهُ ، فَبعدَ أيَّامٍ من ذلكَ ماتَ عَبدُ اللهِ مُتأثِّراً بجِراحِهِ... ، فَرثتهُ (عَاتِكَة) رِثَاءً لاَ مثيلَ لهُ ، وَكانَ مَمَّا قَالتْ:

رُزِيتُ بِخَيرِ النَّاسِ بَعدَ نَبيِّهِمْ
وَبعدَ أَبي بَكْرٍ وَمَا كَان قصَّرا
فَآليتُ لا تنفكُّ عَينِي سَخِينة
عَليكَ ولا ينفَكُّ جِلدِي أَغبرَا
مَدىٰ الدَّهرِ ما غنَّتْ حَمامةُ أَيكةٍ
وَمَا طَردَ اللَّيلُ الصَّباحَ المُنوِّرا
فَلِله عَيناً مَن رأَىٰ مثلهُ فَتىً
أكرَّ وأَحمىٰ في الجهَادِ وَأصبرَا

إذا شَرَعَت فيهِ الأَسنَّةُ خَاضَها

إلى المَوتِ حتَّى يتركَ الرُّمحَ أَحمَرا

فِي بَيتِ الفَاروقِ عُمَر رَضيَ اللهُ عنهُ

والطَّرِيْفُ فِي المَسأَلةِ: أنَّ (عبدَ اللهِ بنَ أَبي بَكْرٍ) لمَّا حَضرتهُ الوَفَاةُ، قَالَ لزوجِهِ (عَاتِكَة): لكِ حَدِيقةٌ من مَالِي وَلاَ تَتَزوَّجِي بَعْدِي!

فَوافَقَتْ عَلىٰ ذَلِكَ.

لكِنْ مَا إن انقضَتْ عدَّتُهَا، حتَّى خَطبهَا الفَاروقُ عُمَرُ، فَوافَقتْ!

فَقِيلَ للإمامِ عليٍّ: مَاذا جَرىٰ مَعَها؟

فَحَكَم بِقَولهِ: يَا عَاتِكَة! رُدِّي عَليهِم مَا أَخَذتهِ مِنهُم وتزوَّجي إنْ شِئت.

فَلمَّا ردَّتِ الحدِيقَة ، وَدخلَ بها عُمَر رَضيَ اللهُ عَنه ، ودُعي النَّاسُ إلىٰ الوَليمةِ دَنَا عليٌّ منهَا وَقالَ لهَا مَازِحاً: أأنتِ القَائِلةُ:

فَآليتُ لا تنفَكُّ عَينِي سَخِينَة

عَليكَ ولا يَنفكُّ جِلديَ أَغبرَا؟!

فَبكتْ ، فَقالَ الفَاروقُ عُمَرُ: غَفرَ اللهُ لكَ يَا أبا الحَسَن ، مَا أردتَ إلا أن تُفسدَ علينَا أَهلنَا ، أسأَلكَ باللهِ إلاَّ كففتَ.

وَهَكَذا عَاشَتْ معَ الفَاروقِ عُمَر عِيشةً فيهَا سَعادَةٌ كَبيرةٌ ، مُتجَاوِزةً وَرَعَ عُمَر وَشدَّتَهُ ، من ذلكَ أنَّه لمَّا قَدِمَ عَليهِ مِسكٌ وَعنبرٌ منَ البَحرَينِ ، قَالَ: واللهِ لوَددتُ أني وجدتُ امرأةً حسَنةَ الوَزنِ، تَزِنُ لي هَذا الطِّيبَ حتَّى أقسمهُ بين المُسلِمينَ...

فَقَالتْ زوجتهُ (عَاتِكَةُ): أَنا جَيِّدةُ الوَزنِ ، فهلمَّ أزِن لكَ.

قَالَ: لاَ. فَقالتْ: لِمَ؟

قَالَ: إنِّي أَخشىٰ أن تَأْخُذيهِ فَتجعليهِ هَكَذا ـ وَأدخلَ أصابعهُ في صدغَيهِ ـ وتَمْسَحِينَ به عُنقكِ فَضْلاً علىٰ المُسْلِمينَ!!

وَعَلىٰ الرَّغمِ من أنَّ الفَاروقَ عُمَر كَان لا يحبِّذُ إتيانَ النِّساءِ إلىٰ المَسَاجدِ ، وَذلك خَوفاً منَ الفِتنَةِ ، عَلىٰ الرَّغمِ من ذلكَ كُلّه كَانتْ (عَاتِكَة) تُصلِّي معَ النِّساءِ في المَسجدِ النّبويِّ صَلاةَ الفَجرِ ، وذلكَ عِندَما طَعنهُ (أَبو لُؤلُؤة المَجوسيُّ) ليسقُطَ شَهِيدَ المِحْرابِ ويُدفنَ إلىٰ جِوارِ الرَّسولِ ﷺ وصَاحبهِ أَبي بَكْرٍ.

فَقالتِ السَّيِّدةُ (عاتِكَة) تَرثِيهِ:

مِنْ لِنَفسٍ عَادَهَا أَحزانهَا
وَلعَيـنٍ شَفَّهَـا طُـولُ السّهَـدْ
جَسَـدٌ لُفّـفَ فـي أكفـانِـهِ
رَحمـةُ اللهِ علـىٰ ذاكَ الجَسَـدْ
فِيـهِ تَفجِيـعٌ لمـولَـىٰ غَـارمٍ
لمْ يدعْهُ الله يَمشِي بسَبَد[1]

ثُمَّ تزوَّجَها من بعدِ الفَاروقِ عُمَر (الزُّبَيرُ بنُ العَـوَّام) ، وبقيـتْ معـهُ حتَّـىٰ قُتِـلَ فِـي (يَـومِ الجَمَلِ) ، فَأرادَ عليُّ بنُ أَبي طَالبٍ الزَّواجَ مِنهَا ، فَرفَضَتْ بحجَّة الخَوفِ عليهِ من القَتْلِ!!

فِي رِثَاءِ الحَبِيبِ ﷺ

لَكِن أَبدعَ رِثَاءٍ لهَا.. ، هُوَ رِثاؤهَا للرَّسولِ

---

(١) أي: بقي فقيراً طيلة مدة خلافته.

صَلـواتُ اللهِ عليـهِ ، حيـثُ الحـزنُ الهـادئُ ، والبلاغَةُ القَويَّةُ ، وذلكَ بِقولَها:

فَـأَمْسَـتْ مَـراكبُـهُ أوحشـتْ

وَقَـدْ كَـان يَـركَبُهَـا زيْنُهَـا

وَأَمْسَـتْ تَبكِـي عَلـىٰ سَيِّـدٍ

تُـرَدّدُ عَبـرَتَهَـا عَينُهَـا

وَأَمسَتْ نِسَاؤكَ مَا تَستَفِيقُ

مِـنَ الحُـزنِ يَعتـادهَـا دينُهَـا

وَأَمسَتْ شَواحِبَ مِثْل النّصَا

لِ قَـدْ عُصِّلـتْ وكبَـا لـونُهَـا

يُعالِجنَ حُزناً بَعيدَ الذّهَا

بِ وضفي الصَّدرِ مُكْتنِعٌ[1] حَينَها

---

(١) اكتنع الموت: دنا واقترب.

هوَ الفَاضِلُ السَّيدُ المُصطَفىٰ
عَلـىٰ الحَـقِّ مُجتَمـعٌ دِينُهَـا
فَكيفَ حَياتِي بَعدَ الرَّسو
لِ وَقدْ حَانَ من مِيتَةٍ حينُهَا؟!

فَسلامٌ علىٰ سَيِّدة الرِّثاءِ.. السَّيِّدة عَاتِكة بنت زَيدٍ.

وآخرُ دَعوانا أَن الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمين